بعد ويكيليكس... لا يوجد حقيقة في السياسة

احْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوْ اعْتَذَرَ مِنْهُ

نستخلص من كلِّ ما نُشر في ويكيليكس، أن بعض السياسيين في لبنان لا يتطابق قلبهم ولسانهم، يقولون في السرِّ خلاف ما يقولونه في العلن، إن هذه المواقف المتباينة لذات الشخص تدفع إلى التساؤل حول مصداقية كل ما يصدرُ عنه، ما يقودنا إلى تساؤلٍ أكبر، هل يوجد حقيقة في السياسة؟

بمراجعة علم السياسة، تبيَّن أن هذا العلم، يرى بأن الحقيقة مخبأة وراء غيمة فاسدة اسمها الدعاية السياسة، التي تُعرَّف بأنها القدرة على تغيير السلوك السياسي للأفراد، أو خلق هالة قدسية حول شخصيةٍ ما لا تستحقُّ التقديس.

فأيُّ علاقةٍ بين الدعاية والحقيقة، وهل هما فعلاً متناقضين، إذا قبلنا بهذا التفسير فإن الدعاية ستعرفُ من خلال الاختلاف، إذ من لحظة الوصول إلى الحقيقة، تكون الدعاية مكوَّنة من كلِّ ما هو زائدٍ عنها، أو موجود إلى جانبها، أو يدَّعي أنه يحلُّ محلها. ولكن المسألة هي كيف نصل إلى الحقيقة، فالصعوبة تكمن في استبيان الحقيقة من بين الوقائع المختلفة، ولا تنجم هذه الصعوبة فقط بسبب نقص المعلومات أو سوء نية الأشخاص المعنيين، وإنما أيضاً بسبب استحالة التحقق من الوقائع المادية، ومن صحة النتائج التي تستخلص منها والتفسيرات التي تُعطى لها. فللدعاية دور في خلق حالة رمادية تؤدي إلى وجود تعارض محسوم ما بين الأبيض والأسود، أو ما بين "الحقيقة والسراب"، فالحقيقة ستكون في هكذا بيئة، حتماً غير مؤكدة والوصول إليها يكون أمراً معقداً، لأن الدعاية لا تكمن فقط في المضمون الخاطئ وإنما أيضاً في الطريقة التي يعرضُ فيها هذا المضمون، ومن هنا يبدو واضحاً أن الدعاية هي أداة إجرائية أو وسيلة بيد السياسيين، قد تبث الحقيقة أو الكذب، لكنَها دائماً تهدف إلى دفع الجمهور إلى تبني سلوك سيكون مختلفاً عن ذاك الذي كان سيتبناه بصورة عفوية.

وبعد نشر ويكيليكس، كان على الجمهور الذي انقاد بالدعاية الكاذبة، أن يستفسر، هل ما قيلَ في السرِّ هو الحقيقة، فإذا أيقنَ هذا الجمهور أنه كان مضلَّلاً بدعايةٍ خادعة، وبعد هذا اليقين لم يتحرَّك ولم يُعر اهتماماً جدِّياً لما نُشر، فإن انعدام ردَّة الفعل الرسمية والشعبية حول وثائق ويكيليكس، هو أخطر بكثير مما وردَ في هذه الوثائق، لأنه يعبِّر عن المستوى الخطير الذي وصل إليه الإدراك الشعبي، ويدفع للقول أن لا أمل في

المنظور القريب لأي إصلاح مرتجى في ظلِّ انقياد الجمهور والجهات الرسمية بشكلٍ أعمى خلف الدعايات المضلِّلة التي يُطلقها "مستبدّون" نطلق عليهم شواذاً تسمية "رجال السياسة".

عصام نعمة إسماعيل